

فكرة الحياة عند لايبنتز

The idea of Life in Leibniz

د. بطاش منانة¹¹ المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)، batache79@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/..../.. تاريخ القبول: 2020/..../.. تاريخ النشر: 2020/..../..

ملخص:

هذا المقال هو محاولة لمعرفة دور فكرة الحياة في فلسفة لايبنتز، الذي يرى أن كل شيء حي ، وأن الحياة موجودة حتى في صميم المادة الجامدة ، مؤكداً أنه يوجد عالم من المخلوقات والحيوانات في أقل جزء من المادة. إنها دعوة إلى تصور الكائن الحي تصوراً جديداً يختلف عن التصور الآلي، الذي روج له ديكارت عن طريق رده كل نشاط حيوي إلى الآلية ، وألغى بذلك مبدأ الحياة ليس من العالم المادي فقط، بل حتى من عالم النبات والحيوات.

كلمات مفتاحية: الحياة ؛ المونادة ؛ الإنتليخيا ؛ لإدراك؛ الإشتهاء.

Abstract:

I want to show in this paper the role of the idea of life in plays in Leibniz who hold that everything is endowed with life, and the latter exists even at the heart of static matter .this means that there is whole a word of creatures , animals and spirits in the minest particulars of matter. As it stands ,this is a call for a new conception that transcends the mechanical view wich. Descartes has bequeathed to us ; in espousing such a view Descartes tried to mechanize all living activities, and by doing so , he eliminates life, not only from the material word, but from the organic word of plant and animal.

Keywords: life; monad; perception ; entelchy; appetite.

1- مقدمة :

ترتبط فكرة الحياة في تجربتنا اليومية بفكرة الموت ، لأنه كلما حضرت إحداها غابت الأخرى باعتبار أن الحياة نقيض الموت، لكنه من الناحية الفلسفية والعلمية والدينية فهي موضوع غامض ومعقد، يحتاج إلى بحث وتحليل ونقد، إلى درجة أن بعض الفلاسفة عملوا على ردها إلى الآلية، مثل ديكارت الذي قام بتفسير كل نشاط حيوي تفسيراً آلياً، ينصب على دراسة الحركة وقوانينها دون الحاجة إلى أي بعد روحي، وألغى بذلك مبدأ الحياة المملوءة بالأسرار كالإحساس ، الفضيلة ، الروح ، الفعل و القوة ... إلخ ليس من العالم المادي فقط بل من عالم النبات والحيوان أيضاً واعتبرها مجرد آلة تسيروها قوانين تخضع لحتمية صارمة .

هدف ديكارت من ذلك هو الابتعاد كل البعد عن التفسيرات المدرسية القائمة على أساس إحيائية المادة (animisme) البعيدة عن الروح العلمية ، الأمر الذي أدى إلى ظهور مذهبه الآلي الكلي (mécanisme universel). الذي يعتبر الفيزيولوجية مجرد فيزياء معقدة أو فيزياء بيولوجيا، نتيجة إفراغه المادة سواء الجامدة أو الحية من كل ما هو روحي وحيوي، واعتبار الامتداد ماهيتها، بمعنى أن كلا من جسم الإنسان ومختلف الحيوانات والنباتات ما هي سوى آلات معقدة الصنع والتركيب " ليحرر البحث العلمي والعلم الطبيعي آنذاك من التفسيرات الخرافية، ومن كل المبادئ المدرسية والأرسطية التي اعتبرها عوائق أمام التقدم العلمي .

أخذ الماديون بهذا الرأي وقالوا إن ما يسمى بالحياة في الواقع ما هي إلا حركة في مادة ، وتمادوا في ذلك إلى درجة رد النفس إلى الحركة مثلما فعل ديكارت بالحيوان والنبات، على العكس من ذلك رأى فلاسفة آخرون الحياة في كل شيء حتى في المادة الجامدة مثل لايبنتز (1664-1716) الذي يعتبر من رواد الفكر الغربي الحديث ، المتأثر بمختلف الفلاسفة السابقين له أمثال أفلاطون، أرسطو، وديكارت ... إلخ، وبعض البيولوجيين أمثال مالبيجي (Marcelo Malpighi 1628 - 1694)، ولوفنهوك Antony Van Leévenhock (1632-1723) وسبالازاني (Apallazani 1729-1798).

اطلع لايبنتز على فلسفة ديكارت خلال السنوات التي قضاها في ماينس وباريس من سنة (1667 إلى غاية 1676)، وتأثر بها بتبنيه لتفسيرها الميكانيكي باعتباره نتيجة حتمية لتطور العلم الطبيعي الحديث لا سيما الميكانيكا، نظرا لما فيها من دقة وموضوعية ، لكن ما صادفه هو أن تعمقه في البحث بالطريقة الميكانيكية كشف له أن الأطروحة التي اعتمد عليها ديكارت، والمتمثلة في اعتبار الامتداد ماهية المادة بحيث لا تخفي هذه الأخيرة وراءها أي كيفية أو قوة أو حياة، ثم امتداد هذه الفكرة إلى كل من جسم الإنسان والحيوان والنبات هي أطروحة خاطئة ولها تداعيات خطيرة جدا، وأن الاكتفاء بالتفسير الميكانيكي الأحادي لها غير كاف لفهمها، لأن المادة في نظر لايبنتز مفعمة بالحياة، وليست ميتة وعاطلة .

موقف كهذا يستدعي طرح مجموعة من الأسئلة نراها ضرورية لتوضيح حضور فكرة الحياة في فلسفة لايبنتز ودورها وهي : ما علاقة الحياة بحاملها المادي في نظر لايبنتز؟ وما هي الطريقة التي تنبأها في تفسيرها؟ ثم أخيرا ما هي أهداف لايبنتز الفلسفية والعلمية والدينية وراء اعتقاده أن كل شيء حي، وأن الحياة في كل شيء حتى في صميم المادة الجامدة؟

2- علاقة الحياة بحاملها المادي:

يرى لايبنتز "أنه يوجد عالم من المخلوقات والأحياء والنباتات ، والحيوانات والجمادات والكمالات enhéléchies والأرواح في أقل جزء من المادة " (لايبنتز، 1974، فقه، 66) وهذا يعني أن المادة عنده حية مليئة بالنشاط والحيوية، اللذين يعبران عن وجود، قوة جعلها لايبنتز من أهم خصائص المادة، لأن العالم عنده لا يتكون من الامتداد والحركة، كما اعتقد ديكارت، وإنما فيه عنصر غير مادي وهو القدرة على الفعل أو القوة التي تمثل ماهية المادة، قائلا في كتابه **نظام الطبيعة الجديد وتواصل الجواهر** "إذن سأجد طبيعتها [طبيعة المادة] تكمن في القوة، ويتبع ذلك وجود شيء مماثل للشعور والاشتهاء، وهكذا كان يجب تصورها كالفكرة التي نملكها عن أنفسنا " (Leibniz, 1994, p. 67).

لقد عمّم لايبنتز انتشار هذه القوة في الأجسام ومختلف الكائنات الحية، وعبر عنها ابتداء من سنة 1679 من خلال مفهوم الصورة الجوهرية لتدل على جانبها الروحي والحيوي في الأجسام سواء

الجامدة أو الحية، وتجعلها عبارة عن كائنات حية، وهو الأمر الذي فشل فيه المذهب الميكانيكي الديكارتي عندما فسر حركة الأجسام تفسيراً ميكانيكياً، وتجاهل القوة التي اعتبرها لايبنتز مبدأ الحياة .

لكن وبعد إعلان لايبنتز عن علمه الجديد الذي سماه الديناميكا، رأى أنه من الضروري البحث عن تصور جديد أكثر عمقا واتساعا من الصور الجوهرية، فوجد مصطلح الانتليخيا (Entléchie) وهو مصطلح أرسطي قدم ذكره في كتاب النفس، أما لايبنتز فاستخدمه كمرادف للقوة التي تعبر عن الحياة وقدرة الجوهر على الفعل لذلك اعتبره المكون الأساسي للجوهر، البسيط، ومن بين نشاطاته الإدراك والاشتهاء، وسماه مبدأ الحياة قائلا: " يجب أن تكون الانتليخيات أو المونادات مشبعة بالإدراك ولا توجد أية آلة طبيعية مجردة من انتليخياها الخاصة" (Gaudmar, 2001, p. 30) ولما كانت الإنتليخيا هي مبدأ الحياة، فقد نتج عن ذلك أن يكون كل شيء حي مؤكداً أكثر من مرة، أن كل جسم يجب أن يتحد مع إنتليخياه لتجعله كائناً حياً، مهما كان حجمه ووضع، قائلا: "الجسم الذي يتعلق بمونادة هي انتليخياه أو نفسه يؤلف مع الانتليخيا ما يمكن تسميته كائناً حياً ومع النفس ما يمكن تسميته حيواناً ، وهذا الجسم المتعلق بكائن حي أو حيوان يكون على الدوام جسماً عضوياً" (لايبنتز، 1974، فق 63).

يعني هذا أن كل جسم مشبع بالحياة عبارة عن آلة طبيعية أجزاؤها لا متناهية في الصغر، وأن كل جزء من أجزاء مادته منقسم انقساماً لا نهائياً له، وكل جزء منقسم إلى أجزاء وكل جزء يعبر عن العالم بأسره في غاية من الدقة واللطافة ولا وجود لأي عقم أو عطل إلا ظاهرياً فقط، وأن أعضاء كل جسم مملوءة بأجسام أخرى صغيرة حية أو بالأحرى لكل روح كتلة ومجموع هذه الكتل تشكل عالم الظواهر [مملكة الطبيعة وهي مادية] ومجموع الأرواح تشكل عالم الجواهر سماها لايبنتز [مملكة الغايات] أو مجموع الأنفس، وهي تمثل الحياة في فلسفة لايبنتز.

وعلى هذا فإن ثنائية النفس والبدن ليست مسألة متعلقة بالإنسان فقط، وإنما تخص جميع الموجودات عند لايبنتز، لأن كل شيء مكون من جانب مادي يستدعي التفسير الآلي، وجانب روحي وحيوي يمثل الوحدة الجوهرية للجسم التي لا تقبل التركيب من أجزاء ولا الانقسام إليها، لأنه عنصر بسيط، والبسيط لا يمكن تحليله إلى عناصر أبسط منه. ودور هذه الوحدة الجوهرية في فلسفة لايبنتز هو الارتقاء من الاعتبارات

المادية الديكارتية التي تمثل المذهب الآلي إلى الاعتبارات الميتافيزيقية والروحية، التي تمثل المذهب الحيوي الديناميكي المفعم بالقوة والفاعلية والحياة، والتي لا تتناقض مع معطيات العلم الجديدة المرتكزة على مفهوم القوة أو الطاقة.

لقد أصبح الجوهر عند لايبنتز كائنا قادرا على الفعل والنشاط - بعدما كان عاطلا عند ديكارت - يستحيل أن يتوقف عنهما لكونه مصدرا لكل أفعاله وانفعالاته بحكم أن الجوهر عنده أو المونادة تميل دوما إلى الكمال، وهذا الميل لا نهاية له هذا من جهة، ومن جهة أخرى هو الذي يبرر الجهد الذي تبذله المونادات من أجل الفعل مما جعل لايبنتز ينتقل من المادة إلى الحياة حيث يقول: "لا أعرف إطلاقا تلك الكتل العاطلة والساكنة التي يتحدثون عنها، فالفعل موجود في كل مكان، وأعتقد أنه لا وجود لجسم دون حركة ولا جوهر دون مجهود" (Leibniz, 1974, p. 79) إذا تعمقنا في طبيعة الجوهر عند لايبنتز، وجدنا أن مصدر فاعليته والحياة فيه هو تضمنه لوحدة حقيقية تعبر عن أساسه الأنطولوجي، سماها ابتداء من سنة 1695 بالمونادة واصفا إياها بقوله: "وهو المبدأ نفسه الموجود في الأحياء ويسمى النفس، وفي الكائنات الأخرى صورة جوهرية وهو الذي يؤلف أيضا مع المادة جوهرًا حقيقيا واحدا أو وحدة بذاتها وهو ما أسميه بالمونادة ، وإقصاء هذه الوحدات الحقيقية والواقعية سيجعل الأجسام مجرد كائنات وجدت بالحشد." (Leibniz, 2001, p. 219).

يتضح مما سبق أن المونادة موجودة دائما في جسم ما هو جسمها وهي كماله تمنحه الحياة وتشكل معه جسما عضويا وتجعله حيوانا، لذلك يمكن تسمية جميع الجواهر البسيطة أو المونادات المخلوقة بالكائنات الحية، لأن في ذواتها كمالا خاصا واكتفاء ذاتيا يجعلها تميل بذاتها إلى الفعل، لكونها مفعمة بالحياة والنشاط، ونظر الاستحالة انفصال هذه المونادات عن الأجسام ما عدا في حالة الله، فهذا ما يفسر وجود الحياة في كل شيء، لكن ماذا يقصد لايبنتز بهذه الحياة ؟ وكيف يمكن لمونادة بسيطة روحية أن تمنح الحياة للجسم ؟

يرى لايبنتز أنّ المونادة تشبه النفس البشرية ، و يكمن هذا التشابه في الإدراك والاشتهاء اللذان يعتبران أفعال النفس ودلالة على الحياة فيها.

1-2- الإدراك : يقصد لايبنتز بالإدراك التعبير عن الكثرة في الوحدة ، وموضوع إدراك المونادة هو العالم الذي تدركه كل مونادة بطريقتها الخاصة، نظرا لاختلاف درجات وضوح أو غموض هذا الإدراك. إذ هناك إدراكات واضحة ومتميزة وإدراكات غامضة ومختلطة. قائلا: " ولما كان الإحساس شيئا يزيد على الإدراك البسيط ، فقد يكفي أن نطلق على الجواهر البسيطة التي لا تحتوى على شيء آخر سواء اسم المونادات، أو الإنتليخيات بوجه عام ، أما تسمية النفس فيصح أن نقصرها على المونادات التي يكون الإدراك فيها أكثر تميزا يكون مصحوبا بالتذكر". (لايبنتز، 1974، فق 19)

نلاحظ من خلال هذا القول أنّ ديكارت أخطأ عندما لم يميز بين الإدراكات البسيطة التي لا نشعر بها والتي تكون غير واعية، وهو الأمر الذي جعله هو وأتباعه يعتقدون أن العقول وحدها مونادات، بينما النبات والحيوان وجسم الإنسان ما هي سوى آلات معقدة الصنع والتركيب، وهم لا يفرقون بين الجسم الحي والمادة الحاملة ، وألغوا، منهما كل نوع من الحياة، وأصبحت دراسة الحيوان وجسم الإنسان من اختصاص العلم الطبيعي وحده، والذي لا يرى وجود أي إحساس عند الحيوان، وأنّ الطبيعة هي التي تتصرف فيه وفقا لتدابير أعضائه ،و الدليل على ذلك أن الحيوان يعجز عن استخدام مختلف الوسائل التي تتطلب أدنى قدر من التفكير . يرى ديكارت في كتابه **مقالة الطريقة** القسم الخامس، أنه ليس للحيوان لغة، وبالتالي لا عقل له لأن القدرة على الكلام عند ديكارت تستلزم قدرة عقلية (ديكارت، 1991، ص. 84).

نستنتج مما سبق أن كل ما ليس له نفس فهو مادة وما دام الحيوان ليست له نفس مفكرة فهو مجرد مادة خاضعة لقوانين آلية بحتة، ذلك أن ديكارت ردّ الحياة في النبات والحيوان وحتى في جسم الإنسان إلى الآلية المحضة.

2-2 الاشتهااء : يقصد به لايبنتز انتقال المونادة وعلى الدوام من إدراك غامض إلى إدراك أكثر تميزا لتحقيق كماله، أو العكس تنتقل من إدراك واضح إلى إدراك غامض ليؤدي ذلك إلى النقص ولو بصفة مؤقتة ، لكن في كلتا الحالتين فهذا الفعل يدل على وجود تغير مستمر فيها يرى لايبنتز أن التغير هو الذي

يجعل المونادة تميل إلى الكمال، لأن ما تنزع إليه المونادة في كل تغيراتها هو الوضوح في الإدراك وخضوع هذه التغيرات إلى العلل الغائية ذلك أن المونادة تقصد دائما من تغيرها غاية هي الخير والابتعاد عن الشر. إن الغاية القصوى النفس هي إدراك العالم بواسطة الجسم، وهذا الأخير عبارة عن مجموعة من المونادات الخاضعة لمونادة أسمى منها ومتحركة فيها، وهذه المونادة المتحركة هي النفس عند الإنسان التي يعتبرها لايبنتز كمال الجسم أو روحه، ليصبح إدراك كل من الحيوان والإنسان إدراكا واعيا، لأنه مصحوب بالتذكر بينما الكائنات الحية الأخرى تكون إدراكاتها غامضة، ويعني هذا أن هناك أنواع كثيرة من المونادات تنتج عنها مراتب وجود مختلفة مراتب حياة مختلفة.

3- مراتب الحياة:

يرى لايبنتز أن الحياة الذي نستشعرها في أنفسنا منتشرة في الكون، لكن بدرجات متفاوتة، وطبقا لمبدأ الاتصال الذي يعني استحالة وجود الفراغ في الطبيعة، سواء على مستوى الظواهر أو على مستوى المونادات، ينتج أن الطبيعة لا تعرف انفصالا ولا طفرة وأصبح وجودها حيا، وإن كانت هذه الحياة تتخذ صورا مختلفة ومرتاتب وجود متعددة، لأن ذلك مرتبط بدرجة وضوح أو غموض إدراكات المونادات، التي صنفها لايبنتز إلى أنواع هي :

3-1- المونادات العارية (غير الواعية) سميت كذلك لأن إدراكاتها غير واضحة ولا تعي أفعالها، لعدم قدرتها على معرفة علل هذه الأخيرة ، نظرا لإختلاطها المكثف بالمادة ويقصد بها لايبنتز 3-1-1- المونادات التي تكون الأجسام الطبيعية (او الكائنات الدنيا) و التي يعتبرها حية لكن إدراكاتها غامضة ومشوشة .

3-1-2- الأنفس النباتية والمقصود بها المونادات التي تؤلف النبات والتي تتحكم فيها مونادات مركزية (la monade dominante) سماها لايبنتز بالأنفس النباتية، وتتميز بكثرة كبيرة من الإدراكات الصغيرة حيث لا شيء واضح فيها

3-2- المونادات الحيوانية (تمثل أو تشكل الحد الأدنى من الحياة): يقصد بها لايبنتز الأنفس الحيوانية التي لها إدراكات أوضح ومصحوبة بالتذكر، ومعرفتها معرفة غريزية مبرجة من دون أن تعرف القوانين التي

بني عليها العالم. لكنها تحس بالجهد الذي تبذله وتنتبه لما يحدث حولها، وتخزن أحاسيسها لتستحضرها وقت الحاجة ، يقدم لها هذا التذكر نوعا من التتابع بين تجاربها الماضية والحاضرة لأن إدراكاتها لا تتولد لتختفي نهائيا وإنما هي متتابعة ومتسلسلة ، و الذاكرة هي التي تدرك هذا التسلسل للاستفادة منه في الحاضر، رغم أنّ هذه الأنفس لا تعي ذاتها .

3-3- المونادات الواعية بذاتها أو المونادات العاقلة: ويميز لايبنتز بين نوعين من هذه المونادات.

3-3-1 النفس البشرية أو النفس العاقلة : تتميز بإدراك واضح ومتميز بالإضافة إلى التذكر والتعقل، إنها تدرك العالم وتعني إدراكها، له لأنها تعرف أسباب ونظام الكون وتكشف عن حقائقه، باستعمالها لمبادئ العقل كمبدأ عدم التناقض ومبدأ السبب الكافي يقول لايبنتز " ... إن معرفة الحقائق الضرورية والأبدية هي التي تميزنا عن الحيوانات الخالصة أو بما نحصل على العقل ونتزود بالعلوم وذلك حين ترفعنا إلى المعرفة بأنفسنا وبالله، وهذا ما يسمى فينا بالنفس العاقلة أو العقل " (لايبنتز، 1974، فق 29).

تتميز إذن هذه المونادات العاقلة بازدياد تميز ادراكها، وبملكة تذكرها ووعيتها اللذين تنتج عنهما الشخصية الفردية أو الأنا . لكن هذا لا يعني أنّ الفرق بين الإنسان والحيوان فرق نوعي، كما اعتقد ديكارت ذلك، وأنّ العقول وحدها نفوس، أما الحيوان فهو مجرد آلة ... وإنما الادراكات والتذكر والتعلم كلها ملكات موجودة عند الحيوان لكن بصفة أقل، لأن الإنسان كائن عاقل وصفة العقل فيه تجعله في مرتبة أعلى، بحيث يستطيع إدراك الحقائق العقلية التي تتعالى عن التجربة والحس اللذين يشترك فيهما مع الحيوان، وبهذه الحقائق العقلية كالحقائق الرياضية والمنطقية والأخلاقية يرتفع الإنسان إلى التفكير في ذاته وفي الوجود وفي الله... إلخ .

3-3-2 العقول العليا أو الأرواح العليا : ويسميتها لايبنتز بالكمالات أو الذرات الروحية المحضة، على الرغم أنه لم يصرح عن طبيعتها وماذا يقصد بها، لكن على الأرجح هي الملائكة والجن وهي تشترك مع الإنسان في كل صفاته ، إنها تتميز بالإدراك الواعي وملكة العقل لكن معارفها أكثر تميزا من المعارف الإنسانية ، ويعتبرها لايبنتز أكثر نبلا وكمالا، لأنها تشبه الله وتمثل مدينته أي "مدينة الله"، أو مملكة

الفضل (La reigne de la grâce) وإذا كانت علاقة الله بالموجودات المادية الأخرى هي علاقة الخالق بالمخلوق، فعلاقته بالأرواح هي علاقة الأمير برعاياه أو الأب بأبنائه.

3-4- الموناد الخالق: وهو الموجود الأوحد بذاته من بين جميع المونادات الأخرى، وهو مفارق لها لأنه خالقها، وبعيد عن شوائب المادة، لأنه منبع الموجودات وخالق الكون ومسير لنظامه، وصاحب الوجود الروحي الخالص. نلاحظ من خلال ما سبق أنه على الرغم من وجود مراتب للحياة، إلا أن الطبيعة مملوءة بالمونادات والأجسام ولا وجود لطفرة أو فراغ فيها، وأن الطبيعة متصلة في جميع جوانبها، ولا يمكن أبدا تصور المادة على أنها مجرد جسيمات ممتدة في المكان كما اعتقد ديكارت ذلك.

لذلك لا يعقل أن تكون الحياة في بعض الموجودات، ولا تكون في بعضها الآخر، يقول لايبنتز "كل ما في الطبيعة ملاً، هناك جواهر بسيطة في كل مكان، تختلف عن بعضها البعض اختلافاً فعلياً عن طريق أفعال خاصة بها". (لايبنتز، 1974، فق 03).

4- دور الحياة في فهم الطبيعة:

إن فكرة بعث الحياة في الطبيعة، وتصور كل جسم في الكون على مثال النفس البشرية، يفتح المجال أمام التفسير الغائي للطبيعة، وأنّ لهذه الأخيرة جانباً روحياً لا يمكن فهمه بالتفسيرات الآلية، التي اكتفى بها ديكارت، وأنّ الأجسام بمختلف طبائعها وأوضاعها تتضمن الحياة بداخلها، وذلك بفضل العدد اللاهوائي من الأجسام العضوية التي تتركب منها، لكن بدرجات متفاوتة، ويعني هذا أن المادة الموجودة في العالم مادة حية، وبين هذه المادة والحياة أو بين الحيوية والآلية علاقة خاصة، حيث كل جزء من المادة مهما كان حجمه ووضعه إلا وله قابلية لتلقي الحياة، وإذا وجد فرق بينهما [المادة والحياة] فهو فرق في درجة التنظيم ودرجة وضوح أو غموض الإدراكات فقط (Sarah Carvallo-plus, 2004, p. 27)، لأن أدنى أنواع الموجودات تتميز بجوازتها للحد الأدنى من الحياة وهذا عكس ما ذهب إليه ديكارت، عندما جرّد الطبيعة من كل نشاط وحيوية، واعتبر الحيوانات والنباتات وأجساد البشر مجرد آلات متقنة الصنع.

تعتبر الحياة في فلسفة لايبنتز أساسا أنطولوجيا للوجود ومبدأ ضروريا للمعرفة لأنه يستحيل من دونها فهم الطبيعة وما وراء الطبيعة والغايات التي تسعى إلى تحقيقها أو التي من أجلها خلقت، من المؤكد أن تطور علم الأحياء في القرن السابع عشر هو الذي فتح المجال أمام لايبنتز للأخذ بفكرة انتشار الحياة في الكون بأكمله، وأن كل شيء حي خاصة بعد اكتشاف المجهر وبعض الوسائل التقنية الأخرى، التي تستعمل للكشف عن أدنى عناصر ومكونات الطبيعة، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فقد تأثر أيضا بتطور علم التشريح آنذاك واكتشاف أسرار الخلايا النباتية والحيوانية، وعلى رأس هذه الاكتشافات ما وصل إليه ليفينهوك والمتمثل في اكتشاف كائنات عضوية دقيقة - لا ترى بالعين المجرد - في الأجسام المادية التي تبدو وكأنها جامدة لا حياة فيها لكن في الحقيقة هي حية وفيها نشاط وحيوية.

إن المادة في نظر لايبنتز وإن كانت تبدو غير حية إلا أنها تنطوي على عالم من الكائنات الحية الدقيقة المشابهة للنفس البشرية ، وأن الكون كله عبارة عن جسم عضوي حي ضخم يتكون من أجسام عضوية حية أخرى صغيرة، وهي بدورها تنقسم إلى ما لانهاية له من الأجسام العضوية اللامتناهية أيضا في الصغر وكل جسم عضوي مهما كان صغيرا فهو ينقسم إلى ما لا نهاية له من الأجزاء، وكل جزء يحمل في ذاته الحياة، وبهذا يتصور لايبنتز أن كل جزء من المادة يمثل عالما من المخلوقات والأحياء والحيوانات والنفوس وهذا ما أثبتته علم الأحياء عندما أكد أن بذرة النبات والحيوان الذي ستكونه تتضمن في ذاتها صورة النبات بأكمله، وأن خلية الحيوان تنطوي على الصورة الكاملة لهذا الحيوان بمعنى أن في هذه البذرة أو الخلية توجد الصورة الأصلية وجميع مراحل تطور هذا النبات أو الحيوان.

لقد أشار لايبنتز إلى الأبحاث العلمية الحديثة التي أثبتت أن الأجسام العضوية لا تنشأ من السديم كما اعتقد الأولون ذلك بل إنها حاصلة من تطور بذور سبق تكوينها، وهذا ما سماه لايبنتز بالتكون المسبق (لايبنتز، 1974، فق6) أي أن الله خلق كل المونادات دفعة واحدة منذ بداية الوجود، لكنها كانت موجودة وكامنة داخل بذور، وعندما تأتي فترة النشأة تنمو وتتطور، بموجب قوانين حددها الله بإحكام، لنتج المونادة وجسمها معا في نفس اللحظة.

نستنتج مما سبق أنّ الأنفس عند لايبنتز لا تولد ولا تموت وإنما تنتقل من جسم إلى آخر وتتحّد أجزاء ثم تترك أجزاء أخرى، لأن ما ليس له بداية ليس له نهاية. دعمت هذه الأفكار اكتشافات علماء التشريح ولا سيما لوفينهوك يقول لايبنتز "إن السادة ليفينهوك، سوامندان (1637-1680)، مانيجي الملاحظون الممتازون هم الذين أنقذوني. بتأكيدهم لي أنّ الحيوان وكل جوهر منظم لا يبدأ كما نظن، وأنّ ولادتهما الظاهرية ما هي إلا تطور ونمو" (Sarah Carvallo-plus, 2004, p. 52). أما موتها فهو مجرد موت ظاهري أيضا يتمثل في التناقص والرجوع إلى الحالة التي كان عليها قبل النشأة، أما استمراريته وعدم إتلافه، فالحياة هي التي تضمنهما لذلك فالحياة باقية دائما وأبدا والموت الكلي غير موجود، والكائن الميت في نظر لايبنتز ما هو إلا كائن مختفي عن الوجود الظاهري فقط، لأنه أصبح لا متناهيًا في الصغر، نتيجة ما حدث له من تناقص. إن ما يوجد هو إما التطور والنمو اللذان يقودان إلى النشأة، أو النقصان والتراجع اللذان يقودان إلى الموت الظاهري أو الاختفاء الحسي. يرى فرانسو دي شونسو إن تفكير لايبنتز حول الكائن الحي مركّز حول أفكاره في الفيزياء والميتافيزيقا القائمة على أساس القوة (Duchesneau, 2010, pp. 11-12).

5- جسم الانسان كإشكال بين ديكارت ولايبنتز: لقد انطلق أصحاب المذاهب الثنائية في العصر الحديث من التمييز بين المادة والعقل كأساس لفلسفاتهم، كما هو الحال عند ديكارت، الذي ميز بين الجوهر الممتد والجوهر المفكر، وأعاد طرح مشكل جسم الإنسان بشكل جديد وبعمق، بعدما وضعه أفلاطون في مرتبة أقل من مرتبة النفس، ونحن كلنا نعرف أنه ليس للجسم في فلسفة أفلاطون أي وجود حقيقي، وهذا أشار إليه في نظرية المثل عندما أكد فيها وجود النفس قبل حلولها في الجسد، وسيكون الحال كذلك بعد الموت، الذي يجعل انفصال النفس عن الجسد لذلك فالموجود الحقيقي عند أفلاطون هو النفس وليس الجسد الذي اعتبره شبحا فقط.

أما ديكارت فله موقف مختلف تماما، حيث انطلق من قضية معروفة مفادها أن ماهية الجسم هي الامتداد، الهندسي البحت من كل الصفات الحسية، لذا فالفكرة الواضحة والمتميزة التي كونها عن العالم هي الامتداد، ومعه فكرة الحركة التي هي عبارة عن تعاقب الأمكنة التي يشغلها الجسم المتحرك، نتج عن هذا

الموقف أن ظواهر العالم عند ديكارت سواء الطبيعية أو العضوية [بما فيه جسم الإنسان] تفسر كلها تفسيراً ميكانيكياً لخضوعها لقوانين الحركة، وكأن هذا الكون عبارة عن آلة ضخمة تسير وفقاً لقوانين آلية بحتة. هو الأمر الذي جعل جسم الإنسان عنده مجرد مادة عاطلة وميتة وخالية من الحياة والنشاط، ولا فرق بينها وبين المادة الجامدة وهذا ما أكدته في كتابه **رسالة في الإنسان** "أفترض أنّ الجسم ما هو إلا تمثال أو آلة أرضية التي شكلها الله بطريقة مقصودة، لكي يجعلها تشبهنا تماماً قدر الإمكان... ووضع بداخلها أيضاً كل القطع المطلوبة لكي تسير وتتغذى وتتنبس، وفي الأخير تقلد كل ما هو خاص بوظائفها التي يمكن تخيلها... والتي لا تتوقف إلا على وضعية الأعضاء" (Descartes, 1953, p. 807).

يهدف ديكارت من وراء هذه الفكرة إلى تأسيس علم طبيعي جديد منفصل عن فيزياء أرسطو وفيزياء المدرسين، وذلك بخلّص الأجسام بما في ذلك جسم الإنسان من الصفات الخفية كالقوة والفعل، ومن الحياة وأسرارها كالإحساس والشعور التي تعيق البحث العلمي، وتبعد العلماء والباحثين عن الروح العلمية وهي المسؤولة عن تأخر العلم الطبيعي خلال القرون الوسطى .

قدم لنا ديكارت تصوراً آلياً للجسم البشري، وألغى فيه مبدأ الحياة المملوء بالأسرار ورد جميع الأفعال الجسمانية الحيوية فيه إلى الدم الذي يبعثه القلب إلى الأوردة والشرابين، والمتمثل في الأرواح الحيوانية التي تكون وسيطة بين الدماغ [الغدة الصنوبرية] والعضلات. مما جعله يلحق الفيزيولوجيا بالفيزياء وتصبح الأجسام العضوية عنده مجرد كتل مادية تسيرها قوانين آلية بحتة ولا وجود للأفكار أو الأرواح أو الحياة فيها لينتقل من التفسير الآلي للظواهر المادية [آلة الكون] إلى التفسير الآلي لجسم الإنسان [آلة الجسم] (Texier, 2002, p. 11) معتمداً على العلل الفاعلة وحدها وإقصاء كلي للعلل الغائية .

أشار ديكارت إلى هذه الأفكار في أهم مؤلفاته كمقالة **الطريقة**، ومبادئ الفلسفة، وانفعالات النفس.... إلخ. و تحدث فيها عن جسم الإنسان وهو منفصل عن النفس، بالطريقة نفسها التي تحدث عن ظواهر المادة الجامدة إلى درجة أنّ هذا الجسم في نظره يقوم بمختلف وظائفه دون حاجته إلى النفس، لأن الله صنعه بكيفية يستطيع من خلالها أن يتحرك من ذاته ، ووضع فيه الأعضاء اللازمة للقيام بهذه الحركة بطريقة تقنية دقيقة .

نستنتج مما سبق أن جسم الإنسان في نظر ديكارت لا يختلف عن أية مادة جامدة، من حيث التركيب الفيزيائي والكيميائي، وهي دعوة إلى التصور الآلي للكائن الحي بصفة عامة، وجسم الإنسان بصفة خاصة، وإلحاق الفيزيولوجيا بالفيزياء وتكسير الحاجز بينهما لتحقيق وحدة العلم، ورفض فكرة أرسطو التي تميز بين العلوم، بحكم أن لكل علم موضوعه وخصائصه ومنهجه، أما ديكارت فباعثه أن النزعة الآلية الموجودة في الفيزياء هي نفسها الموجودة في الكائنات الحية فقد اضطرب بصفة حتمية إلى رفض النفس النباتية. النفس الحساسة والنفس المحركة، لكن دون أن ينسى أن الآلة الحية صنعها الله بينما الآلة الجامدة صنعها الإنسان .

لقيت هذه الفكرة رواجاً كبيراً في الأوساط العلمية آنذاك، وأصبح لها أتباع ومناصرون، وحقت نتائج معتبرة، إلا أنه في المقابل أثارت ضجة وانتقادات كثيرة خاصة من قبل لايبنتز، الذي رغم وفائه للفلسفة الديكارتية بتبنيه لتفسيرها الآلي، إلا أنه انتقد وبشدة تصورها الآلي للإنسان، واعتبره تصوراً فيه مقدار كبير من الخطأ، وله تداعيات خطيرة أخلاقياً ، دينياً ، و علمياً.

يرى لايبنتز أن لكل موناذة مخلوقة جسم غير متناه في الصغر، نظراً لانقسام المادة إلى ما لا نهاية له من الأجزاء ومجموع المونادات تعطينا كائناً حياً مفعماً بالحياة النابعة من المونادات التي تُكونه ، والتي تتميز بالإدراك والاشتهاء، ويعني هذا أنّ الأجسام عند لايبنتز بمختلف أنواعها حية حتى في أصغر أجزائها ، ويستمد جسم الإنسان حياته من المبدأ الذي تأسس عليه، وهو المبدأ الحيوي (le principe vital) المتمثل في الموناذة المركزية "النفس العاقلة ". كمبدأ للحياة ومصدر الوظائف البيولوجية المختلفة. أما المونادات الأخرى فهي تابعة للموناذة المركزية ومختلفة عنها في درجة وضوح إدراكاتها، لكن في الوقت نفسه هي التي تكون الجسم العضوي للموناذة المركزية، وفي المقابل تمنح هذه الأخيرة للإنسان وحدته الجوهرية وهويته، على الرغم مما يطرأ عليه من تغيرات منذ نشأته إلى اختفائه، لذلك فمن الضروري جداً ربط الجسد بالنفس، حتى يفعم بالحياة والنشاط، وهذا ما يختلف جذرياً عما ذهب إليه ديكارت عندما ميّز بين الجسم والنفس، واعتبرهما جوهرين مختلفين: الأول مادي والثاني روحي ولا وجود لتوسط بينهما.

أما في نظر لايننتر فحسب الإنسان عبارة عن موندات حية، لكن نظرا لكون إدراكاتها غامضة ، تظهر لنا في شكل مادة وكأنها عاطلة وجامدة، أما في الحقيقة فإن جسم الإنسان عبارة عن مجموعة لامتناهية من الأجسام العضوية الحية ، وهذا يعني أنه لا يمكن الفصل بين الجسم والنفس، كما اعتقد ديكارت ذلك، لأن العناصر المكونة لهما واحدة ومن الطبيعة نفسها ، وهي الموندات المختلفة فيما بينها من حيث درجة وضوح أو غموض إدراكاتها فقط، وفي الوقت نفسه لا يجب أن نفترض أنّ الموندات التي تشكل الجسم العضوي تظل كما هي منذ ولادته، لأن الأجسام في تغير مستمر بينما النفس أو الموندات المهيمنة تبقى ثابتة.

6- التفسير الغائي للكائن الحي وعدم الاكتفاء بالتفسير الآلي :

يقسم لايننتر الوجود إلى عالمين، عالم الأجسام أو الظواهر، وعالم الجواهر أو الموندات، يخضع عالم الظواهر لقانون العلة الفاعلة وتفسيره يتم بطريقة آلية، بينما يخضع عالم الموندات الحية لقانون العلة الغائية، ويفسر بطريقة ميتافيزيقية وغائية.

يرى لايننتر أنّ الله خلق كل شيء من أجل غاية معينة، ولا وجود للعبثية في الكون. وهدف كل غاية هو تحقيق النظام والكمال والجمال، ولتحقيق هذه الأخيرة يستوجب أولا وجود الحياة في كل شيء، حتى يتحقق الانسجام والتكامل بين موجودات الطبيعة وخيرية الله اللامتناهية، وهذه الحياة لا يمكن أبدا دراستها وفهمها بالطريقة الآلية، لأن ذلك لن يؤدي إلا إلى نفيها، كما حصل ذلك لديكارت، وإنما يجب دراستها بالطريقة الغائية والاعتراف بوجود حكمة إلهية من النظام البديع، الذي نجده في جسم الإنسان والحياة التي تنبض في كل جزء من أجزائه مهما كان صغيرا، لذلك فالاكتفاء بالتفسير الميكانيكي في دراسة الكائن الحي لا يوصلنا إلى فهم غايات أعضائه لا من حيث تركيبها الفيزيائي والكيميائي، ولا من حيث وظائفها الحيوية .

لا ينكر لايننتر أنّ الكائن الحي يدرس بطريقة آلية، لكونه مجسدا في جسم له خصائصه الفيزيائية، التي لا يمكن فهمها إلا بالاعتماد على القوانين الفيزيائية التي نستعملها في المادة الجامدة، إلا أن هذه الدراسة لا تفسر غاية الكائن الحي لا في وجوده ولا في أفعاله المختلفة، حيث قال: "إن كل الذين يرون روعة بنية الحيوانات يجدون في أنفسهم ميلا إلى الاعتراف بحكمة صانع الأشياء وأن يتعدوا عن الجمل التي تروجها

بعض العقول المغمورة جدا، والتي تقول إننا نرى لأنه اتفق أنّ لنا عيين من دون أن تكون الأعين خلقت ل ترى" (لايبنتز، 1974، فق 19)

عطفا على ما سبق نستنتج أن لفهم الإبصار يجب الاعتماد على التفسير الآلي، وهو أن وجود العينين بتركيب فيزيائي كيميائي شرط أدى إلى الإبصار [كنتيجة له] بمعنى فهم الإبصار الذي يمثل الوظيفة يستوجب فهم العين الذي يمثل العضو . لكن هذا التفسير وحده غير كاف، بل يجب أن نكمّله بالتفسير الغائي الذي يبين غاية الكائن الحي وغايات أعضائه، وغاية الحياة التي تسري في عروقه، ويعني هذا أن لايبنتز اعتبر فكرة الحياة عنصرا أساسيا في الدراسات الفيزيولوجية وطرحها طرحا نفسيا وبيولوجيا، الأمر الذي جعل مذهبه الحيوي مؤسسا يوم على ضرورة توسيع فكرة الروح أو النفس إلى الكائنات الحية الأخرى، وهي ليست كذات مفكرة [الذات الديكارتية] وإنما كحياة تتميز بالإدراك والاشتهاء، وكون المونادات لا تختلف عن بعضها البعض سوى في درجة وضوح أو غموض إدراكاتها فهذا ما يجعل الفرق بين ما هو حسي وما هو روحي وحيوي هو فرق في درجة الوعي والمعرفة فقط .

يدل هذا على مدى قدرة لايبنتز على تجاوز المذهب الآلي الكلي والعمل على تأسيس لعلم جديد هو البيولوجيا، التي لم تصبح علما إلا ابتداء من سنة 1802 بفعل الأبحاث التي تركها جورج ستاهن (George Stahl) (1734-1659)، لكن لايبنتز لعب دورا فعالا في تأسيس كثير من الأفكار مثل نظرية الخلية ودور الغائية في البيولوجيا، التي ما زالت مشكلة مطروحة إلى يومنا هذا، نتيجة وجود عنصر الحياة في جسم الإنسان وفي جسم كل كائن حي، لأن لكل جسم حي إنتليخياه كما أكد ذلك أكثر من مرة.

نستنتج إذن أن تلك الغائية التي رفضها ديكارت سواء على مستوى المادة الجامدة أو المادة الحية استرجعها لايبنتز بقوة، نظرا لارتباطها بإحيائية المادة عنده ورفض عقمها وعطالتها وجمودها [المادة] عند ديكارت . أما أساس عمق هذه الفكرة التي تميزها لايبنتز عن باقي الفلاسفة المعاصرة المعاصرين له فهو فكره القائم على الديناميكية أو القوة التي غرسها في كل جسم وكل مادة، والتي فتحت له المجال للحديث عن الحياة كفكرة أساسية في فلسفته .

7- خاتمة :

رغم أنّ لاينتنز بقي ميكانيكيا في دراسته للظواهر الفيزيائية إلا أنّ هذه الدراسة في نظره تبقى غير كافية، وأنها لا تقدم لنا حقيقة المادة أو حقيقة الكائن الحي المفعمين بالحياة، مؤكداً أنّ الطبيعة مملوءة بالحياة، وأن كل شيء حي .

لقد كان هدف لاينتنز من ذلك هو أن يقدم لنا تصورا جديدا للإنسان وللحيوان وللطبيعة، يختلف تماما عن التصور الذي روج له ديكارت وأتباعه، والمتمثل في التصور الآلي الذي ينفي كل ما هو روحي وحيوي وينظر إلى الكائنات الحية كآلات جامدة لا حياة فيها.

أدخل لاينتنز عنصر الحياة في مختلف الموجودات، واعتبرها كائنات حية تستوجب طريقة خاصة في دراستها وعلاقة فريدة بحاملها المادي، جعل للإنسان نفسا عاقلة وللحيوان أيضا نفسا... إلخ. و لكل عضو من أعضاء الجسم كائنات حية لذلك لا يوجد في العالم جماد أو عقم أو موت، بل كل شيء حي وأمر كهذا جعل فلسفة لاينتنز تمثل مذهباً فلسفياً حيويًا بامتياز. حاول أن يعيد للوجود أساسه الروحي والحيوي وربطه بحياة لا تفارقه أبداً، وبإله خالق مدبر.

استوجبت هذه النظرة الجديدة للطبيعة وللکائن الحي بصفة خاصة طريقة جديدة في التفسير، فإذا كانت النفوس تفعل بمقتضى العلل الغائية، والأجسام تسلك وفقا للعلل الفاعلة، ومع ذلك فالكل منسجم داخل كون واحد مفعم بحياة أبدية، أدت هذه الأفكار إلى تأسيسه لعلم جديد قائم بذاته هو الفيزيولوجيا التي ألحقها ديكارت بالفيزياء.

8- قائمة المصادر والمراجع

1-8- المصادر :

أ- باللغة العربية :

- 1- لاينتنز، ج، ن (1974)، **المونادولوجيا والمبادئ العقلية للفضل الإلهي**، ترجمة عبد الغفار المكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة .
- 2- لاينتنز، ج، ن، (2006)، **مقالة الميتافيزيقا**، ترجمة الطاهر بن قيزة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت .

ب - باللغة الفرنسية :

- 1- Leibniz . G.W, (2001) *Opuscles philosophiques choisis* , J.Vrin , Paris.
- 2- Leibniz, G.W, (1994), *Système nouveau de la nature et de la communication des substances* ,Flammarion , Paris.
- 3- Leibniz , G. W . (1859), *Œuvres de leibniz*, tome 1,fermin , Paris .

2-8-المراجع

أ-باللغة العربية :

- 1- ديكارت ، روني (1991)، *مقالة الطريقة*، موفم للنشر ، الجزائر .
- 2- زكريا، فؤاد، (2019)، *أفاق فلسفية*، مؤسسة هنداي، سي أي سي، المملكة المتحدة.

ب -باللغة الفرنسية :

- 1- Carvallo plus Sarah, (2001), *La controverse entre Stahl et leibniz sur la vie de l'organisme et le mixte* , J.vrin , Paris
- 2-Jean Coutard, Pierre, (2007), *le vivant chez leibniz* , L'harmattan, Paris .
- 3- Degaudemar, Martine, (1994), *le vocabulaire de leibniz*, ellipsse.
- 4- Descartes, René, (1953), *traité de l'homme in Œuvres et Lettres*, Gallimard, Paris.
- 5- Duchesneau, François, (2010), *Leibniz, le vivant et l'organisme*, J. vrin, Paris.
- 6- Texier, Roger, (2008), *Descartes le physicien*, l'harmattan, Paris.

الآطروحات:

1. طعمة، جورج، (1944)، *المنادولوجيا أو المذهب المونادي للايبنتز*، دائرة الفلسفة، الجامعة الأمريكية، بيروت.